المجمع 21 (2025/1447)، 149-173

اللغة العربية بين التأصيل والحداثة

رياض كامل[1]

The Arabic Language between Authenticity and Modernity

Riad Kamel

Abstract

This article examines the history and importance of the Arabic language by focusing on three main themes: the link between language and art, language as a marker of identity, and efforts to conserve and modernize Arabic to meet contemporary needs. First, art depends on language for its growth and reach; it facilitates interpretation, analysis, and sharing to promote engagement. Similarly, art supports language; as human creativity advances, both art and language evolve together. Language, therefore, acts as a cultural vessel that preserves a nation's thoughts, heritage, values, and creativity. In fact, Arabic has preserved the most important works of Arabs during their pioneering periods in science, philosophy, medicine, and literature, making it an essential part of Arab identity.

Language thus encapsulates a nation's intellectual endeavors, concerns, beliefs, and ideas throughout its historical development. As such, it is imperative to preserve the Arabic language while modernizing pedagogical approaches to meet the needs of both current and future generations. Arabic encounters considerable challenges, including static curricula, the encroachment of social media language, and insufficient support from official institutions to modernize Arabic in an effective way. The most applicable strategy for linguistic modernization involves safeguarding its roots and authenticity, then revising outdated teaching methodologies to enhance accessibility for contemporary

[1] كاتب وناقد في مجال الرواية والقصة والشعر والمسرح.

learners. Such advancement can solely be realized through institutions underpinned by official authorities.

الملخّص

تتناول هذه المقالة مكانة اللغة العربية ودورها بين الماضي والحاضر والمستقبل عبر ثلاثة محاور رئيسية: علاقة اللغة بالفن، واللغة كهويّة، وتحديث اللغة وتأصيلها لمواكبة متطلبات العصر. فلا يقوم الفنّ ولا يتطوّر إلا بدعم منها لأنّها تعمل على توسيع رقعة انتشار هذه الفنون كلّها من خلال التّفسير والتّحليل والشرح بهدف المشاركة والتّعميم. ومن شأن الفنّ أن يدعم اللغة إذ كلما ارتقى إبداع الإنسان ارتقى الفن وارتقت اللغة. واللغة العربية جزء من هويّة العرب المركزيّة في ظل ما يجري من محاولات تهميش الكيان العربيّ وتفتيت مقدّراته. فاللغة ليست مجرد وسيلة للتخاطب، بل هي وعاء حضاري يختزن فكر الأمة، إرثها، قيمها وإبداعها، وقد حفظت أهمَّ مؤلّفات العرب حين كانوا روّادا في مجال العلوم والفلسفة والطب والأدب، وهي المرآة التي تعكس مستويات تفكيرها وهمومها وأفكارها ومعتقداتها على مرّ العصور.

لذلك إن العمل على الحفاظ على اللغة العربية وتحديث وسائل تدريسها بأساليب تتلاءم مع جيل الحاضر والمستقبل لهو ضرورة ملحّة، فاللغة العربية تواجه تحدّيات مهمة، منها الجمود في مناهج التدريس، وتهديد لغة التواصل الاجتماعيّ، وعدم رعاية المؤسسات الرسميّة، في حين أن الأبحاث اللسانية تلقى اهتماما كبيرا في الغرب.

ترى هذه المقالة أن هناك حاجة ماسّة إلى عملية المثاقفة، وإلى متابعة الأبحاث اللسانية لأن ذلك أمر ضروري وفي غاية الأهمّيّة. فقد استفاد العرب، قديما وحديثا، من حضارات الشرق والغرب، على حد سواء وعملوا على ترجمة أهم إبداعاتهم الفكرية والأدبية، وبالتالي قام الغرب بترجمة أهم الإبداعات العربية التراثيّة والإفادة منها. إن الطريق الأمثل لتحديث اللغة هو الحفاظ على أصولها وأصالتها، ومن ثمّ العمل على تبديل مناهج التدريس القديمة بهدف تقريبها من مدارك الجيل الحالي وتيسيرها لهم، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال عمل المؤسّسات التي ترعاها الجهات الرسمية.

مقدّمة

ترمي هذه المقالة إلى إبراز أهمية اللغة العربية في تطوير الأدب وترسيخ الهويّة، وإلى ضرورة المحافظة عليها وتعديل مناهج دراستها لتتلاءم مع الحاضر. تناولنا في القسم الأول من المقالة العلاقة الجدلية بين اللغة والفن والخيال، باعتبارها ثلاثة روافد تلتقي معا، تدعم إحداها الأخرى وتصبّ في خانة الإبداع؛ فالفن لغة غير مكتوبة ينير الفكر ويزيده توهّجا، والخيال يشعله ويأخذه إلى آفاق أبعد مما تثيره الحواس. ربطنا بينهما وبين اللغة ودورها في ترجمة الفن والخيال إلى لغة مكتوبة بهدف المشاركة، لأن الإنسان مخلوق اجتماعي بامتياز.

تناولنا في القسم الثاني العلاقة بين اللغة والبيئة والهوية، ودور اللغة في ترسيخ مكانة الإنسان العربي عبر التاريخ، فوجدنا أنّ اللغة مرآة المجتمع ومرآة الفرد في عالم الأدب، كما في عالم الواقع. وهي تنتعش في ظل مجتمع يسعى إلى تطوير علومه وفلسفته، كما فعل العرب إبّان القرون الوسطى حين عمدوا إليها يدرسونها ويكتبون فيها الأبحاث، إلى أن تعرّض الشعب العربي لانتكاسات متتالية مدة قرون، حتى كانت المواجهة المباشرة من جديد بين الشرق العربيّ والغرب نهاية القرن التاسع عشر، فوجد العرب، بفضل الترجمات عن عدة لغات، أنّ الغرب قد قدّم أدبا متطوّرا ومغايرا، فعادوا إلى اللغة وقد استشعروا خطرا يهدّد هويتهم فكتبوا مؤلفاتهم في الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة وغيرها، بأساليب مبتكرة. كما اطّلعوا على الأبحاث المتعدّدة في علوم اللسانيات، وفي تطوير المناهج اللغوية والنقدية، فقاموا بترجمة هذه النظريات والدراسات والمناهج إلى اللغة العربية للاستفادة منها.

قمنا في القسم الثالث والأخير من المقالة بالدعوة إلى تحديث وسائل التدريس، إذ ما زال تدريس قواعد اللغة العربية مرهونا بنظريات ومناهج وضعها العرب حين كانوا سبّاقين في مجالات ثقافيّة وعلميّة متعدّدة. فدعونا إلى الاستفادة من إنجازات الباحثين العرب وتحديثها وإنعاشها، من ناحية، ومن إنجازات الغرب، الذي لم يتردّد يوما في الاستفادة من حضارة الشرق العربي، من ناحية أخرى، لأنّ المثاقفة هي دلالة قوة لا دلالة ضعف. لن يتحقق المطلوب والمنشود إذا كانت هذه المحاولات التجديدية مقتصرة على أفراد، لأنّ مثل هذا الأمر

الكبير يستوجب وقوف مؤسسات الدولة، وتخصيص ميزانيات ترعى هذه الدراسات وهذه المناهج وتعمل على تطويرها.

تمهيد

ليست اللغة شرطا من شروط الوجود الإنسانيّ، ولا هي أحد العناصر الأربعة التي تحدّث عنها علماء اليونان؛ الماء والهواء والنار والتراب. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون هذه العناصر، أما بدون اللغة فإنه يستطيع أن يحيا؛ أن يأكل وأن يشرب وأن يتنفّس. وبالتالي يمكنه أن يعيش في دولة يجهل لغتها، لأنّ لغة الجسد وإيماءاته قادرة على تحقيق معظم حاجياته، فلا يموت جوعا. (بنكراد، 177)

إنّ جميع الحيوانات والطيور تعبّر عن ذاتها بالصوت أحيانا، وبلغة الجسد أحيانا أخرى، وبكليهما في أحوال عدة، فالفراخ ترسل أصواتا لأمها، وتنتفض شغفا حين تقترب منها وقد حملت لها الطعام. وهكذا تحافظ على كيانها ووجودها واستمرار جنسها. وكذلك الطفل يبكي إذا جاع، أو إذا غابت أمه عن ناظريه. ويعبّر عن خلجاته وأحاسيسه بالصوت أو بالحركة، وبكليهما معا.

يقودنا هذا الأمر إلى التفكير في ماهيّة الإنسان، لا في ماهيّة الكون. فإذا كان الإنسان قادرا على العيش بدون اللغة، فحريّ بنا أن نتساءل: ما نوعية هذه الحياة بدون اللغة؟ عن أيّ مخلوق بشريّ نتحدث؟ وماذا تضيف اللغة إلى ماهيّته البشرية؟

ستقوم هذه الدراسة بالإجابة عن هذه التساؤلات وعن غيرها.

اللغة، الفن والخيال

إنّ الإنسان مخلوق اجتماعيّ متميّز، لا يكتفي بالمأكل والمشرب، وقد تعدّى ذلك إلى ما أسماه غذاء الروح؛ أبدع الفنَّ اليدويّ، كالنحت والرسم والحفر، وخلق الفنّ الجسديّ كالرقص والتمثيل الصامت. وأبدع العرب في فنّ الأرابيسك منذ أكثر من ألف سنة يزيّنون به مساجدهم وقصورهم ومؤسساتهم. قامت كلّ أمة بتطوير فنونها، بالأحرى لجأت إلى الفنّ من أجل استمرار الحياة، إذ لم يكن الإنسان منذ ولادته إلّا روحا وجسدا. يدرك الإنسان

كنه ذاته وكيانه بالبديهة، ويعبّر عن ذاته بالفنّ، فالروح والجسد يكمل أحدهما الآخر، ولن يستمرّ الجسد في الحياة إلا إذا حافظت الروح عليه، والعكس صحيح.

لم يكن العرب بعيدين عن إدراك هذه الحقيقة فلجأ كبار أطبّائها وحكمائها وفلاسفتها إلى علاج الجسد عبر علاج النفس، كما فعل أبو بكر الرازي (865-925) وابن سينا (980-1037)، إذ ساهم كلاهما في تطوير علم النفس العلاجيّ، وقدّما، من ناحية أخرى، أبحاثا سبّاقة في مجال اللغة: الرموز والدلالات والإشارات التي تعتبر اليوم من أهم قواعد اللسانيات الحديثة. وما زال العلاج بالفنون متّبعا حتى يومنا هذا، يعمل المختصون على تطويره من خلال البحث والتجريب. لا نأتي بمثل هذه المعلومة إلا لنذكّر بدور العرب في تطوير كل أنواع العلوم، وبالتالي فإن العلوم بدورها تساهم في تطوير اللغة، كما يفعل اليوم علماء اللغة واللسانيّون في الغرب عبر توظيفهم شتى العلوم الإنسانية.

ما يميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات أنّه يحتاج في حياته اليومية إلى الفهم والإدراك والتفسير والمشاركة والتواصل مع الغير، واللغة كما يقول اللغوي ويلهيلم فون همبولت (1767-1835) "جهاز إبداعي يكوّن الأفكار ويمكّنها من الظهور في المجتمع... والإنسان يفهم ذاته فقط عندما يكون على قناعة من فهم الآخرين له". (تشتشرين، 41) وبالتالي فهو يحتاج إلى عملية التّعبير عما يجول في عقله وفي وجدانه، وإلى عملية المشاركة مع الآخر، وإلّا بقيت الأفكار حبيسة الجسد. ولا نغالي حين نقول إنّ الإنسان لو لم يجد الطريقة التي يعبّر بواسطتها عما يجول في داخله من أفكار ومن هواجس ومن أحاسيس لفقد أهم ما يميّزه كإنسان خلّاق ذي مشاعر.

يدرك الإنسان بيئته من خلال حواسّه، يرى الأشياء، يلمسها، يشمّها، يذوقها ويسمع أصواتها ويعبر عنها باللغة التي يفعّلها العقل. فقد تكون بعض هذه الأشياء جميلة أو قبيحة، مريحة أو مرعبة، حلوة المذاق أو مُرّة، فتبقى على حالها "الصامت" حتى نصفها باللغة، فنعبّر عن إحساسنا بها ونشارك الآخرين بواسطتها. إذًا للحواس دور هام في إدراك ذاتنا ومحيطنا، وفي

فهم أذواقنا وميولنا، لكنّها لم تكن أبدا، في يوم من الأيام، وسيلتنا الوحيدة في التواصل مع محيطنا.

ما كان الإنسان ليلجأ إلى هذه الفنون لولا حاجته إليها، ولولا أهميّتها في التعبير عن ذاته وعن همومه وأفراحه. ما يعني أنّ الفنّ، عامة، ضرورة من ضروريّات الوجود الإنسانيّ. إنّ كلّ هذه الفنون غير اللغوية قادرة على التّعبير عن ذاتها بدون اللغة، وقادرة على التّواصل مع الآخر بدون اللغة. وقد اتخذ الإنسان من الفن وسيلةً للتّفريغ وللتّواصل مع الآخر. ومع ذلك فإنّ اللغة المنطوقة والمكتوبة قادرة على توسيع رقعة انتشار هذه الفنون كلّها من خلال التّفسير والتّحليل، وشرح ما نراه وما ندركه، بهدف المشاركة والتّعميم، وهي حاجة ماسّة للنّفس البشريّة. وكلما ارتقى الإنسان ارتقى الفن وارتقت اللغة، فالفن يطوّر الفكر ويأخذه بعيدا.

لا يقتصر دور اللغة على تصوير ما يتعلق بحواسّنا، بل إننا نحتاجها لتصوير خيالاتنا التي تصل أبعد مما ندركه بحواسّنا الخمس، وقد عُني علم النفس بالخيال وبدراسته من زوايا عدة، أهمها اعتماده كوسيلة من الوسائل العلاجيّة، كما أولته العلومُ الإنسانية أهمّيّة خاصّة في الحفاظ على الصحّة النفسيّة، وهي ضرورة من ضروريّات الوجود البشريّ السليم. فهل يكفي الإنسانَ أن يعبّر عن مشاعره من خلال لغة الجسد؟ أو من خلال الفنون غير اللغويّة؟ وهل من قبيل المصادفة أن ننظر إلى النتاج الأدبيّ على أنه مزيج من الواقع والخيال؟ اللغة هي الوسيلة التي نعبر بواسطتها عن واقعنا وعن خيالاتنا، وعن همومنا وأفراحنا. وحين نجمع ما بين اللغة والخيال نستطيع أن نصل إلى المدى الأبعد والأعمق، ويصبح العالم أوسع وأغنى وأكثر شموليّة. إنّنا نرى بخيالنا مدًى أبعد مما تراه العين، وبواسطته يمكننا خلق ما هو أبعد من الصورة المحسوسة، لكنّ هذه الرؤية وهذه الرؤيا تظلان حبيستي الخيال حتى نحيلهما إلى صورة كلامية. وبالتالي فإنّ اللغة تنقلها من عالم الفرد باتجاه الفضاء الاجتماعي الأوسع.

تحدث فرديناند دي سوسير (1857-1913) عن الدال والمدلول (سوسير، ص84-89)، إذ حين نلفظ كلمة شجرة، على سبيل المثال، فإننا نتخيل صورة، وحين نلفظ أو نقرأ كلمة بيت فإننا نتخيل شكلا ما، ثم تطوّرت هذه الرؤية باتجاه تعدّد الدلالات. ولنأخذ البيت مثالا؛ فإنّ له شكلا خارجيا وداخليا، وفيه غرف وممرات وشرفات وصور محدودة، لكنّ اللغة قادرة على جعله أوسع من شكله ومن صورته، فتأخذه إلى ما هو أبعد من كونه بيتا مبنيّا من طين أو من حجارة أو من خشب؛ فهو الألفة، والعائلة، والمؤازرة.

لقد أسهم الخيال في توظيف اللغة توظيفا إبداعيا فانحرفت المفردة وانزاحت عن دورها التقليدي وحملت التعابير، في اجتماعها معا، عوالم فكرية ليست صورة طبق الأصل عن معناها المباشر. وما زال الخيال يساهم في ولوج عوالم لغوية مبتكرة. لقد عرف الإنسان قيمة الأشياء المحيطة به ودورها فوظّفها توظيفا خياليا متشظيا. فالشجرة، على سبيل المثال لها شكل وصورة ودور مألوف ومعروف، فهي تتكون من جذور، ومن جذع، وسيقان، وأغصان وأوراق وثمار، لكنّ اللغة تجعلها أوسع وأعمق مما نراه، فتصبح الأصل والامتداد والماضي والحاضر والمستقبل، وحين تساقطت أوراقها وجفّت ساقها جعلتها اللغة لا مجرد شجرة يابسة:

وتينةٍ غضّة الأفنان باسقة	قالت لأترابها والصيف يُحتَضَر
بئس القضاءُ الذي في الأرض أوجدني	عندي الجمال وغيري عنده النظر
لأحبسنّ على نفسي عوارفها	فلا يبين لها في غيرها أثر

تخيّل إيليا أبو ماضي الشجرةَ، وقد جفّت أغصانُها وتساقطتْ أوراقُها، إنسانًا بخيلًا يرفض العطاء، ويقصر خيرَه على ذاته، فجعلها تنطق وتحاور وتسرد قصّتها، فكانت اللغة هي الوسيلة التي أسعفت أبا ماضي على تأنيس الشجرة ومجافاة معناها المعهود في معاجم اللغة لتتّسع دلالتها.

هذه هي علاقة اللغة بالفن، يؤثّران ويتأثّران ببعضهما، فالعمل السطحي يستدعي لغة سطحيّة، والفن العميق يستدعي لغة عميقة. إنّ أجمل أنواع الفن، برأينا، كائن في الطبيعة؛

في كل مركباتها، في انسجامها، وتنافرها، يلتقي بها الإنسان في كل لحظة، فتولّد لديه صورا وإيحاءات، وتُشعل خياله، فتكون اللغة هي الأداة والوعاء، معا، تعكس حال الطبيعة وجمالياتها. فالصحراء تستوجب لغة مغايرة عن لغة البحر، ولغة البحر مغايرة عن لغة الغابة. ولغة النجوم، ليلا، ليست لغة العصافير صباحا. هذا التشكّل للطبيعة يولّد لغات مختلفة لأشكال مختلفة، ويولّد فنّا مختلفا. الفن يثير الفكر يستفزه، فيدخل في عمق اللوحة وفي تفاصيل الرقصة وفي نسيج الثوب الفلسطيني، وفي كل هذه الرموز التي تترجمها اللغة عن الطبيعة.

اللغة، برأي لويس هيلمسلاف (1899-1965)، "كلام الإنسان، نبع من الثروات المتنوّعة لا ينضب. اللغة لا تفارق الإنسان بل تتبعه في كل أعماله. اللغة أداة يشكل الإنسان بها تفكيره وإحساسه، ومزاجه وتطلعاته، وإرادته وأفعاله؛ هي الأداة التي بواسطتها يؤثّر ويتأثّر؛ إنّها أيضا الملاذ الأخير والضروريّ للإنسان، وملجأه في أوقات الوحدة، حيث يتصارع العقل مع الوجود، وحيث يحسم الصراع بالحوار الداخلي للشاعر والمفكر". (هيلمسلاف، ص. 11)

تساهم اللغة مساهمة هامّة في فهم العالم وإدراك كنهه وأسراره، وفي التحليق بعيدا، وهي تيسّر للإنسان استبطان العالم "وفق ما تبيحه ممكناتها، ومنها استمدّ صوره واستيهاماته واستعاراته الدالة على القوة والصفاء والطهارة والنقاء". (بنكراد، ص. 178) فاللغة ليست حبيسة معاجم اللغة، بل هي قابلة للتطور بحيث يتمكن المبدع أن يخلق بواسطتها صورا خيالية وشعريّة، وأن يجمع بين الواقع والخيال والفانتازيا، وأن يدمج بين عوالم عدّة من أمكنة وأزمنة مختلفة، وهي تتجاوب مع الشاعر والروائي والمسرحي فيرسم الأدباءُ بواسطتها صورا مختلفة لشخصيات متنوّعة ومن خلفيات متعددة.

هذا الطرح يقودنا إلى التفكير في الأدب كفنّ لغويّ، وفي أهميته، وفي أهم مركّباته ومكوّناته. فهل الأدب مجرد أفكار صامتة، وهواجس حبيسة الروح والجسد؟ فإن كان كذلك فإنّ الأمر ليبدو في غاية السهولة، فما من إنسان يعيش بدون أفكار، مهما اختلفت مستوياتها. إنّ اللغة وعاء لهذه الأفكار، تحفظها منسوجة ومطرّزة بجماليات خاصة، هي جماليّات اللغة.

كتب الكثير عن الأدب؛ أصوله، مفهومه، مضامينه ودوره في حياة الإنسان، وهو موضوع شائك وشائق وهام في آن معا، يمكن للراغب في البحث أن يجد عشرات المصادر والأبحاث الكلاسيكيّة والحديثة التي تناولت هذا الموضوع. ونحن إذ نتكلم عن الأدب فإننا نعلم أنّ اللغة هي المادة الأولية التي يتكون منها، بحيث لا نستطيع فصلهما عن بعضهما البعض. والأدب فنّ لغويّ بامتياز، وكي نخلق أدبا راقيا يجب علينا فكّ إسار اللغة من عِقالها، وقد تمكّن بعض أدباء اللغة العربية من شعراء وروائيين ومسرحيين وكتاب قصة قصيرة من تحريرها فحلّقت على أيديهم.

اللغة، البيئة والهُويّة

إنّ اللغة أحد مركبات هُويّة الإنسان يستعملها شعب بأكمله للتواصل والمشاركة، وهي الأداة التي يؤثّر ويتأثّر بواسطتها، كما قال هيلمسلاف، ومرآة تعكس مواصفات هذا الشعب وإنجازاته على مر العصور. وهي وعاء لأفكاره وأحاسيسه وإنجازاته الفكرية؛ العلميّة والأدبيّة. لذلك من واجب أبنائها العمل على صيانتها وتطويرها والحفاظ عليها. أخذ هذا الموضوع يجذب أنظار الباحثين والدارسين والنقّاد العرب في الآونة الأخيرة، بحيث بتنا نقرأ مقالات وأبحاثا تتناول العلاقة بين الأدب والهويّة، على سبيل المثال، وأخرى تتناول مستويات اللغة داخل العمل الأدبي. وقد تطرقتُ إلى هذه القضية في أكثر من مقال لي، في مجال الدراسات الأدبية، (كامل، ص29-96) فوجدت مدى حرص الأدباء الفلسطينيين على الحفاظ عليها وعلى توثيقها، نظرا للظروف السياسية التي يمرون بها، خاصّة في ظل سيطرة لغة أخرى على التعامل اليومي.

لا نأتي بجديد حين نقول إنّ اللغة ترتبط بالمكان وبالزمان، ولا نضيف شيئا حين نشير إلى التفاوت في مستويات اللغة بين فرد وآخر، وبين فئة وأخرى، وبين شخصية وأخرى، وإلى أنّ اللغة تنمّ عن صفات قائلها ومستوى تفكيره، لكن لا بأس من التذكير بذلك. ولعلّ من أجمل ما قيل في اللغة وعلاقتها بالفرد هو تعريف مارتن هايدجر (1898-1976) لها، أخصّ بالذّات تلك الجملة التي باتت تتكرّر في العديد من الدراسات وفي الكثير من المواقع: "لغتي هي مسكني،

وهي موطني ومُستقرّي، وهي حدود عالمي الحميم وعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقيّة أرجاء الكون الواسع". (المسدي، ص81)

لو أمعنّا النظر في مضمون هذه الجملة لأدركنا كنه اللغة، وما تعنيه لمجتمعنا، بالذات، في ظلّ ما تتعرض له من إهمال على امتداد العالم العربي. فهي أكثر من مجرد هويّة، بل هي نافذة، أيضا، نطلّ من خلالها على الكون الواسع، إذا سمحنا بالمثاقفة مع اللغات الأخرى.

من أهم من درس قضية اللغة وعلاقتها بناطقها المنظر الروسي ميخائيل باختين (1895-1975) الذي أولى هذا الموضوع الكثير من العناية التي جعلته رائدا في تحديد لغة الشعر ولغة النثر الأدبي. وقد أشار بإسهاب، نوعا ما، إلى اللغة، بالأحرى إلى اللغات واللهجات المتعدّدة، فرأى أنّ لكل طبقة لغتها، كما رأى أنّ هناك لغة المحامي والتلميذ والمعلم والطبيب والتاجر والسياسيّ، وهناك لغة اليوم ولغة الأمس. هذه اللغات يمكن أن تدخل في علاقات حوارية، بهذه الصفة تلتقي وتتعايش داخل وعي الناس. (باختين، ص62-67) ينطبق هذا الكلام على عالَم الأدب وعلى عالَم الواقع، على حد سواء، وبالتالي فإن كانت دراسات باختين تصبّ في خدمة الأدب، فإنّ اللغة ودراستها من زوايا اجتماعية تخدم، بلا شك، الأدب بنفس القدر الذي تخدم فيه تطوير العلوم الإنسانية.

حريّ بنا في هذا المقام أن نشير إلى ما قاله الباحث اللغويّ الأمريكي إدوارد سابير (1884-1939) الذي يعتبره كثيرون أبا العلم اللغويّ البنيويّ، الذي يرى أنّ اللغة ابنة بيئتها يكتسبها الفرد ويتعلّمها من محيطه، ولذلك فهي، برأيه، ليست كعملية تعلُّم المشي عند الطفل؛ إذ لو أخذنا طفلا وغيّرنا بيئته فإنّه سيتعلّم المشي لوحده، حتى بدون إرشاد من والديه، لأنّها وظيفة بيولوجية موروثة، لكنّ كلامه سيكون مختلفا تماما عن كلام بيئته الأصلية. (سابير، ص7-8) وهو يرى "أن الكلام فعالية إنسانية تختلف بلا حدود من طائفة اجتماعية إلى طائفة اجتماعية أخرى، لأنه الموروث التاريخيّ للطائفة ونتاج الاستعمال الاجتماعيّ الطويل المدى، إنّه يختلف مثل كل جهد إبداعيّ آخر، اختلافا قد لا يكون شعوريّا، لكنّه على أيّة حال اختلاف حقيقيّ". (السابق، ص8) لقد صدق مثلنا الشعبي حين قال "الكلام من صفات

المتكلم"، نذكر ذلك لنشير إلى أهمية اللغة ودورها، وعلاقتها بمدى وعي ناطقها أو مدى جهله، بصفتها مرآة تعكس ثقافته، هويته ومستوى تفكيره.

مهما كان الهدف الذي يرمي إليه إدوارد سابير، فإنّنا نرى أنّه قد سبق ميخائيل باختين في رؤية بعض الزوايا فيما يتعلّق بالعلاقة المتبادلة بين اللغة وأصحابها، فهي إذن مخزن لحضارتهم وثقافتهم وأفكارهم وتاريخهم، ومرآة لكل هذه الأمور مجتمعة. ليست لديّ أيّة معلومة عن تأثُّر باختين بسابقه سابير، ولكن باختين من أهم من درس قضية تعدُّد اللغات وتعدُّد الأصوات، وأعلم، من ناحية أخرى، أنّ أهم منظري البنيوية مثل ميشيل فوكو (1926-1984) وكلود ليفي ستروس (1908-2009) وغيرهما قد طوروا نظرية سابير اللغوية.

درس علماء العرب لغتهم من زوايا عدّة، وعملوا على تطويرها وحفظها وصيانتها، كتبوا فيها مؤلفاتهم الراقية، وأبحاثهم العميقة، حين كانوا روّادا في مجال العلوم والفلسفة والطب والأدب. ولمّا كان التجافي معها غرقوا في الغيبيات "يتسلّون" بها هربا من واقعهم المرّ، وانشغلوا في التلاعب باللفظ بعيدا عن الفكر ردحا طويلا من الزمن. لا نستطيع أن نتحدث في اللغة وفي الأدب، بمعزل عن الواقع الاجتماعي والواقع السياسي، وهذا هو الفرق بين ما كنّا عليه يوما ما، وبين ما نحن فيه اليوم. إنّ ضعف أيّة لغة وضياعها لهو نتيجة ضعف أصحابها وضياعهم.

لقد انشغل الغرب أثناء "غياب" العرب عن الساحة بإجراء دراسات لسانيّة وبنيويّة وأسلوبيّة وسيميائيّة وغيرها، وتوصّل إلى نتائج هامة جدا، فانتقل النقد من الانطباعيّة والعشوائيّة إلى المنهجيّة، بل بات مدارسَ نقديّة تتلاقح فيما بينها، وإن اختلفت، لكنها كلّها تؤكّد على أهمية اللغة، ليس فقط في مجال الأدب، بل في مجال العلوم المختلفة. ولما انتبه العرب من جديد إلى ما يتهدّد هويتهم نتيجة الاستعمار الغربي، عادوا، نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلى لغتهم وآدابهم وأدركوا أهمية لغتهم وغناها وثراءها، فشهدنا نهضة أدبيّة وفنيّة وعلميّة، لأنهم شعروا بتهديد مباشر لهويتهم.

إنّ اللغة، برأي تودوروف (1939-2017)، "المبدأ والمَعاد، هي نقطة انطلاقه ونقطة وصوله على السواء. اللغة تضفي على الأدب صيغتها المجرّدة كما تضفي مادّتها المحسوسة، فهي الوسيط والموسوط في وقت واحد". (تودوروف، ص42) وكلما ارتقت اللغة ارتقى الأدب وعلا شأن الأمّة. فإن كان الشعر مرآة العرب في غابر الأيام فإن الأدب والفن ما زالا مرآة الأمم.

إنّ الإنسان حين يكون قويا واثقا بنفسه لا تخيفه حضارة الآخر، فيتبادل معه العلم والأدب، وتنتعش حضارته وتتحسن معيشته. كان العرب في نهاية القرن التاسع عشر يحاولون استعادة أنفاسهم بعد أن غابوا عن الساحة قرونا طويلة، فكان الاحتكاك بالغرب محفّزا لهم ومستفزّا للعودة إلى تراثهم وإلى حضارتهم وإلى ثقافتهم ليفاخروا بها أمام تلك الشعوب بما لديهم من رصيد، فكانت اللغة وسيلة هامة تسعفهم في عملية النهضة. فانتعشت عملية الترجمة عن اللغات العالمية؛ الإنجليزية، والفرنسية والروسية إلى العربية، تبعتها عمليات خلق أدبيّ في مجال الشعر والقصة والرواية والمسرح وغيرها.

أعتقد أنّ هذه النهضة لم ترقْ للآخر وأقلقته، وكان العالم يغلي ويهيج مثل بركان؛ استعمار وانتهاك حرمة شعوب مُستضعَفة، فعمد الغرب إلى تقسيم الشرق وكأنّه ميراث وجب توزيعه على "وَرَثة" لا حق لهم فيه لا من قريب ولا من بعيد. وكانت الحرب العالمية الأولى والحرب الكونية الثانية والصراع العربي اليهودي.

في ظل هذا الصراع الكوني، وتقسيم العالم العربي إلى عدد كبير من الدول تحكمها عشائر وقبائل، لم تستسلم اللغة، ولم تفقد مكانتها، فكانت سلاحا بيد الشعراء والأدباء في كل الأقطار العربية. بل إنّ أدبنا قد شهد نهضة في مجال الإبداع عامة، وما كان ذلك ليحدث لولا كون هذه اللغة غنيّة وثريّة وقابلة للتجدّد. أما ذاك الحديث الذي دار، وما زال، حول عقمها وحول عدم تمكّنها من مسايرة العصر الحديث والتعايش معه فليس له علاقة باللغة بقدر ما له علاقة بالإنسان العربي المأزوم، ونجاح الآخر في نشر روح الهزيمة. فقد وجدت هذه الدعوة آذانا صاغية لدى البعض، فيما جُنّدت فئات غارقة في جهلها لضرب اللغة، وتجفيف فكرها من خلال ضرب أعلامها والتشكيك في انتماءاتهم وفي مصداقية أفكارهم

وتغييبهم، وإحياء بدائلَ تعود بهم إلى عصر الظلمة والضياع. ورغم نجاح هذه الحركات في أكثر من قطر، إلا أنّ اللغة كانت الأداة، وكانت الوسيلة التي رفدت الفن والمسرح والأدب على اختلاف أنواعه.

إنّ توصيف حالة اللغة وصراعها مع الواقع الفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ، وصمودها في وجه الرياح الهوجاء يعني أنّها كانت تعاني. ولم تكن اللغة ولا أصحابها سبّاقين في مجال العلوم على اختلافها. يعود الفضل في صمودها إلى الأدباء والكتاب كأفراد، لا إلى المؤسسات. ما زالت الأمة العربية تعيش واقعا من التفكّك يهدّد حضارتها وهويتها ولغتها، مما دعا الباحث والناقد التونسي المعروف عبد السلام المسدّي (1945-) إلى التحذير من هول ما ينتظر اللغة العربية من ضياع، في ظل انتشار التكنولوجيا الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي، إذا لم تتحرك الدول والمؤسسات العربية من أجل إنقاذها قبل فوات الأوان، وبالذات بسبب "شاشة التواصل الافتراضي"، كما يسميها، وظهور لغة هجينة "تتمازج فيها بقايا الفصحى وشظايا اللغة الأجنبية... وتأليفات عامّيّة تتأرجح بين الخصوصية المحلية والحد المشترك الأدنى من تقاطع اللهجات العربية". (المسدي، ص18)

إنّ الخطر يتأرجح بين تيارين، أحدهما متعصّب ومتشدّد يرفض الحوار والنقاش، وحتى مجرد التفكير فيما تتعرض له اللغة، ويعارض التجديد بحجة أنّ كل شيء على ما يرام، وآخر يطفو على السطح بين الفينة والأخرى، ينادي باعتماد الحرف الأوروبي أو اللهجة المحلية. كلاهما خطير؛ الأول يحدّ من دور اللغة الاجتماعي والأدبي، ويعمل على صدّ مجاراة روح العصر والابتعاد عنه، والنحو باتجاه الجمود الفكري، والثاني يبتر أصحاب اللغة عن ماضيهم وتراثهم وحضارتهم ورصيدهم الهائل، فيجعلهم أمة بلا ماض. بكلمات أخرى إنّها دعوة إلى مصادرة الهوية، لا مجرد محو لغة عريقة.

للغة أدوار عدة في دعم الهوية وترسّخها، فهي أيضا أداة توثيق نعود إليها لدراسة ما كان، وإلا كيف أمكننا أن ندرك أهمية الحضارات القديمة؟ فقد عمل الإنسان على حل مكوّنات اللغة المنقرضة في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، لفهم حقيقة حياة الإنسان في تلك الفترة،

ومعرفة أفكاره وتاريخه، وكشف معلومات كانت غائبة عنا. لم يكن ذلك العمل من أجل البحث عن استمرارية الحياة بقدر ما هو استفادة من إبداع من سبقنا، الذي عبّر عنه الإنسان بشتى الفنون، فكانت اللغة هي الأداة التي وثّقت ذلك ونقلته إلينا. لا يزال الباحثون اللغويون ينكبّون على دراسة ما نُحت على الحجارة باللغة المصرية القديمة لمعرفة تاريخ الفراعنة، ودراسة ألواح ملحمة جلجامش الطينيّة المنقوشة باللغة الأكدية للاطلاع على حضارة ما بين النهرين التي وُثّقت باللغة.

وبالعودة إلى تاريخنا العربي لا بدّ أن نوضح أنّ أهمّ ما تعلّمناه وما عرفناه عن تاريخ العرب وعن تراثهم وحضارتهم وأيامهم وطرق معيشتهم كان بفضل ما وُثّق باللغة. تخيّلوا كيف كان بإمكاننا أن نحافظ على تراثنا وعلى حضارتنا لولا تلك الأشعار التي وصلت إلينا عبر مخطوطات ورقيّة مكتوبة بلغة عربيّة جميلة؟ ولولا آلاف المخطوطات التي حفظت تراث العرب وحضارتهم وتاريخهم!؟

اللغة وعاء يحفظ التاريخ ويحفظ الحضارة والتراث، ويصون الماضي من الضياع؛ شعب يفقد لغته يعني أنّه اندثر وامّحى وغاب إلى غير رجعة من خارطة الأمم. الحفاظ على الماضي هو الحفاظ على الحاضر. شعب بدون رصيد فنّيّ ولغويّ، وبدون تراث وعلم وفلسفة فاقدٌ أهمَّ مقوماته الإنسانية. وإلا لماذا تقيم الأمم والشعوب متاحفها؟ وإلام ترمي حين تفعل ذلك!؟

يتحدث فوكو في مقالة له بعنوان "ما معنى المؤلّف" عن علاقة الموت بالكتابة، فيرى أن الكتابة في الملحمة الإغريقية كانت تهدف إلى تخليد البطل، ويرى أن أحد أهداف ألف ليلة وليلة هو إقصاء الموت، إذ كانت شهرزاد تتابع القصّ حتى ساعات الصباح رافضة الموت ساعية نحو البقاء. (فوكو، ص202) ونحن هنا سنستعير الفكرة من فوكو، حتى وإن خرجت عن جزء من سياقها لندعو إلى صيانة اللغة العربية التي حفظت تراثنا من الضياع لنردّ لها هذا الجميل. فإن كانت الكتابة الإغريقية تخلّد البطل، كما يرى فوكو، فإنّها لا شك تخلّد

الأديب وتخلّد الأمم على حد سواء. لكن كيف؟ هذا ما سنناقشه في القسم الثالث من هذه المقالة.

اللغة، المثاقفة والتحديث

لقد تعرّضت لغات عدة للضياع، لكن اللغة العربية، برغم كل الظروف، ورغم ما أصاب أهلها من وهن عبر قرون طويلة، إلا أنّها استمرت في التجدّد والتوسّع وتبادل الثقافات مع لغات أخرى، وذلك بفضل أصحاب العقول النيرّة الذين ساروا بها في معارج المجد. وإلّا كيف نفسّر ظهور الرواية العربية الحديثة؟ وكيف نفسّر انتعاش الشعر العربي الحديث؟ وكيف نفسّر ما وصل إليه المسرح في بعض الأقطار العربية؟ إنّها لغتنا العربية الجميلة والثريّة المنفتحة على التجدّد والتنوّر. فقد أثبتت أنّها قادرة على الصمود في وجه العواصف والأعاصير. إنّنا إذ نقول ذلك للتوكيد على دور الروّاد من الأدباء والعلماء الذين عرفوا كيف يصونون اللغة وكيف يرعونها. ونعلم تماما أنّه كان ممكنا أن يكون حالها أفضل مما هي عليه اليوم.

يتحدّث كثير من الأدباء، وغير الأدباء، عن أزمة اللغة العربية؛ منهم من يعتبر أنّ الأزمة هي أزمة قراءة، ومنهم من يراها أزمة كتابة، ومنهم من يرى أنها أزمة نقد، وفي حالات معينة هناك من يرى أنّ اللغة العربية باتت لغة عتيقة لا تجاري العصر. لا أحد ينكر أنّنا نمرّ في أزمة، وأن هناك عوامل قديمة وأخرى حديثة تستوجب الانتباه واليقظة حتى لا تصاب اللغة بعطب، فالعالم كله يقف، اليوم، أمام تحدّيات كبرى في ظل سيطرة اقتصادية لدول كبرى توظّف كل وسائل التكنولوجيا الحديثة لتسويق لغتها وبضائعها، وباتت أجيال كاملة رهينة هذا الواقع التكنولوجي الرهيب.

إنّنا بحاجة إلى مجهود كبير لمواجهة التحديات، لإخراجنا من هذه الأزمة، ولا أقول إخراج اللغة العربيّة منها فقط، لأنّ اللغة هي جزء من الأزمة العامة التي نمرّ بها على صعيد الفكر والإنتاج العلميّ والصناعيّ. اللغة العربية ابنة المجتمع، وبالتالي فهي ليست الخالق بل هي المخلوق. وما علينا، نحن كمجتمع، إلا أن نرعاها وأن نحافظ عليها. فاللغة حتى تكون حيّة

تحتاج إلى شعب حيّ يبدع في كل المجالات، وينتج في كل المجالات. الأمة العربية غارقة في صراعات سياسيّة وفكريّة، وفي انقسامات طائفيّة تأكل الأخضر واليابس، ولا بدّ أن يكون لها إسقاطاتها على اللغة، يبقى السؤال الأهم؛ كيف نحافظ عليها، وما السبيل إلى تطويرها بحيث تصبح أكثر حداثة؟

هذه القضية أكبر بكثير من أن نقوم بمعالجتها من خلال مقال هنا أو صرخة هناك، بل هي بحاجة إلى إقامة مؤسّسات تتولّى أمرها، كما هو الحال في العالم المتحضّر، وإلا فإنّنا سوف نظلّ نخبط خبط عشواء، نسير على غير هدى؛ ضربة هنا وأخرى هناك، منها ما يصيب ومنها ما يخطئ، سرعان ما تتعثّر المسيرة ثم تتوقّف. لغتنا ليست مجرد وسيلة تواصل بين مئات الملايين من أبناء الشعب العربيّ، بل هي هويّة فكريّة، ووعاء يحفظ تاريخَ حضارة، وإرثا غنيّا من الإبداع والإنتاج في الأدب والطب والفلسفة والكيمياء، وفي شتى العلوم الأخرى.

إنّنا بحاجة إلى تحديث اللغة، وتبسيط قواعدها التي ما زالت تُدرّس في العالم العربي، وفق المدارس التي نشأت وترعرعت وتطوّرت في القرون الوسطى. كان لهذه المدارس دور رائد وهام في رعاية اللغة وتطويرها والحفاظ عليها، لكنّنا اليوم بحاجة إلى إعادة النظر في هذه النظريات لنحافظ عليها، ندرسها ونطوّرها بما يتلاءم مع الواقع الحالي دون التنازل عن أصولها وقواعدها.

يقول الباحث فرديناند دي سوسير في حديثه عن تاريخ علم اللغة في الغرب: "لقد اهتم الدارسون، في بادئ الأمر، بفرع من فروع المعرفة سمّي ب "القواعد". إنّ هذه الدراسة التي بدأها الإغريق وأخذها عنهم الفرنسيون اعتمدت على علم المنطق. وهي تفتقد إلى النظرة العلمية ولا ترتبط باللغة نفسها وليس لها من هدف سوى وضع القواعد التي تميّز بين الصيغ الصحيحة، وغير الصحيحة، فهي دراسة معياريّة، تبتعد كثيرا عن الملاحظة الصحيحة للحقائق، ومجالُها محدود، ضيق". (سوسير، ص19) هذه الدعوة من دي سوسير، واضع علم اللغة الحديث تمكّنت من وضع اللّبِنات الأولى لمجموعة من الأبحاث والدراسات التي

تفرّعت وتشعّبت، وأعادت النظر في كثير من المسلّمات. وما لم يُعد العرب النظر في الكثير من المسلّمات المتعلقة باللغة العربية لبقي الأمر على حاله.

نحن اليوم نسير في أعقاب ما يحدث في الغرب، في مجال العلم واللغة بكل مناحيهما، يفاجئنا العالم الغربي باقتحام عوالم جديدة، وريادة دراسات جمّة، وابتكار نظريات حديثة تدرس علم اللغة، وينشغل معظمنا، كرد فعل لها، بين القبول والرفض، ويسارع البعض إلى التفاخر بماضي العرب حين كانوا سبّاقين في الكثير من العلوم، وكأنّا لسنا بحاجة إلى هذه النظريّات وهذه المنهجيّات الحديثة. فالغرب يقوم، منذ منتصف القرن المنصرم، بدراسات لسانيّة متعدّدة ومكثّفة، ويتنافس المنظّرون هناك في تطوير المناهج والدراسات، يختلفون ويلتقون، يتناقشون ويتحاورون. ويرفض بعضنا ويعترض على قبول هذه الدراسات بحجة أنّ لغتنا ليست صورة طبق الأصل عن اللغات الأخرى، وأنّ ما ينطبق على لغاتهم لا ينطبق على لغتنا. إنّ مثل هذا الاعتراض يبدو في طرحه، بهذا الشكل، كأنّه غاية المنطق.

أتّفق مع كثيرين أنّ للغة العربية ما يميّزها عن غيرها من اللغات، لكنّها تشترك، أيضا، معها في كثير من المميزات. فهي، في نهاية الأمر، لغة ولدت في ظروف بشرية لتخدم فئة معيّنة من البشر، لها أصواتها ودلالاتها ورموزها المشتركة مع كثير من اللغات الحيّة. إنّنا حين نعزل لغتنا عن غيرها كأنّنا ندعو إلى تحنيطها وسجنها في إطار الماضي. لقد اكتشف الباحثون الغربيون أنّه يمكن دراسة الفوارق بين لغة وأخرى، وطبّق بعضهم ذلك من خلال المقارنة بين اللغة السنسكريتية والألمانية والإغريقية واللاتينية وغيرها. ولما فكّوا أسرار اللغة السنسكريتية القديمة وخباياها ساعدهم ذلك في دراسة تاريخ لغاتهم؛ تطوّرها، تشابهِها، اختلافِها وتبدّلاتها (دي سوسير، ص19-21). لقد فعل الغرب ذلك منذ بداية القرن التاسع عشر، وما زالوا مستمرين فيه؛ يتحاور اللاحق مع السابق، يضيف ويصحّح، يحاور ويناقش ويكتشف ما هو جديد، ترعاهم جميعا مؤسّسات علمية وأكاديمية في دول عدة.

لا بأس من أن نذكّر بما قام به العرب حفاظا على لغتهم، للتحفيز والتثوير وتحريك الهمم. فقد قاموا، منذ عصور الإسلام الأولى، بدراسات هامة للحفاظ عليها، حين بدأت اللغة تحيد

عن أصولها الفصيحة ويتفشى اللحَن، إثر دخول شعوب أخرى إلى الإسلام. فكان أبو الأسود الدؤلي (603-688) والخليل بن أحمد الفراهيدي (718-789)، ووضع الأسس الأولى لقواعد اللغة العربية حتى قام سيبويه (765-796) بجمع قواعد اللغة العربية في كتاب واحد أطلِق عليه اسم "الكتاب". وتبعه آخرون في تطوير دراسة اللغة وحفظها من الخلل، إلى أن انهار عالم عربي واسع وشاسع وتوقف البحث والتمحيص.

أثناء كتابتي هذا المقال وقع بين يديّ كتاب راق لي جدا للباحث اللغوي المغربي عبد القادر الفاسي الفهري (1947-) فوجدته يدعم ما نصبو إليه من تغيير، فهو يرى أنّ "كل متكلّم للغةٍ طبيعيّةٍ قد قرّ قرارُه على مخزون ذاكريّ غير واع يُجلي معرفته لتلك اللغة وملكتَه فيها. وهذا المخزون عبارة عن معجم ذهنيّ يمثل الثروة المفرداتيّة المُخزّنة، وجهاز قواعد نشيط يرسم أسسَ تأليف هذه الأبجدية. وكل متعلم للغة يتزوّد، عادة، بأدوات لغوية صناعيّة ضمنها قاموس يُعينه على تمثُّل معاني المفردات وصيغها وأصواتها، وكذلك كتاب قواعد نحويّة وصرفيّة تعيد إلى ذهنه طرق تأليف الوحدات المعجمية... وما يلفت النظر في وضع اللغة العربية هو أن الأدوات الأساسية لتَعَلُّمها وتيسير استعمالها والتفقّه فيها لم تحظ بالتجديد الذي حظيت به مثيلاتها من اللغات الأخرى، بل ما زال القاموس هو قاموس القرن الثاني الهجري (أو الرابع في أحسن الأحوال) تصوّرا وتأليفا ومادة، وما زالت قواعد اللغة هي قواعد نحاة القرن الثاني". (الفاسي الفهري، تصدير الكتاب)

مهما يكن من أمر هذه الدراسة وهذا الكتاب الذي صدرت النسخة الأولى منه سنة 1985، فإنه يثير نقطة في غاية الأهمية، وهي أنّ هذا هو حال اللغة العربية مع معاجمها وكتبها النحوية حتى ذلك التاريخ. ويكفي أنّ الإهمال في هذين المجالين ما زال مستمرا حتى أيامنا هذه رغم صدور معاجم حديثة. أما محاولات تحديث تدريس قواعد اللغة العربية فما زالت تراوح مكانها، وما نراه من مقترحات هنا، أو هناك، ليست أكثر من محاولات فرديّة حتى لو شاركت فيها مجموعات، إذ لم يحدث أيّ تحرك رسميّ جدّيّ على مستوى مؤسساتي واسع وشامل.

نرى من الضروري أن نشير في هذا السياق إلى بحث أكاديمي جديّ لنيل شهادة الدكتوراه من إحدى جامعات الجزائر، بعنوان "قضايا اللسانيات العربية الحديثة بين الأصالة والمعاصرة من خلال كتابات أحمد مختار عمر" (2012)، تؤكد فيه الباحثة صورية جغبوب على صعوبة خلق نظريّة لسانيّة عربيّة حديثة، رغم صدور عدد من الكتب والدراسات التي لم تجرؤ في معظمها على تعدّي ما هو مُتّبع ومألوف، وتوضح في بحثها تلك الصراعات بين القديم والجديد، وبين النظريات الغربية المعاصرة وبين النظريات العربية القديمة. (جغبوب، ص8-36)

لا تتغيّا هذه المقالة أن تتعمّق في هذا الموضوع بالذات، لأنه يحتاج إلى ما هو أكبر وأوسع وأشمل من مجرد ملاحظة عابرة هنا، وأخرى هناك، لكن ما دعاني إلى دق بعض الأبواب المغلقة هو تلك الكتابات -وهي كثيرة- التي تناقش وضعية اللغة العربية ودورها في أكثر من جانر أدبي، متجاهلة أهمية المثاقفة، والتبادل الفكري والحضاري بين الشعوب، لدرجة تجعل بعض أصحاب هذه الدراسات يبدون متشدّدين إلى درجة بترعملية المثاقفة ونفيها بجرة قلم، دون القيام بدراسات أكاديمية. يسارع البعض إلى البحث عن وشائج وعلاقات تربط بين علم اللسانيات الحديث وبين دراسات وأبحاث عربية تعود بنا نحو عشرة قرون إلى الوراء. إنّه لمن باب الفخر أن نجد أنّ الباحثين والمنظّرين العرب القدامى قد ولجوا عوالم كانوا فيها سبّاقين في تلك الأيام. ولكن لا يكفي أن نفاخر بهم، وهم فعلا مدعاة فخر، دون أن نتابع البحث من حيث وصلوا. (انظر رأيا مشابها: الفهري، ص56-61)

كم يؤلمني حين نطّلع على أبحاث عشرات العلماء والباحثين الغربيين الذين يدرسون "الاتّجاهات الأساسيّة في علم اللغة" (انظر: رومان ياكوبسون)، و"أساسيات اللغة" (انظر: رومان ياكوبسون وموريس هاله)، والفروق بين لغات الشرق والغرب، و"علم الأصوات" وغيرها، في حين ما زلنا غارقين في إعراب الفعل دنوا: "فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة للتعذر".

لفتت نظري جملة وردت عند المنظر كلود ليفي ستروس، إذ يقول "عندما نتكلم لا ندرك قوانين اللغة النحوية والصرفية". (ستروس، ص76) أعلم جيدا أنّني اقتطعت هذه الجملة من كتاب هام جدا، يخوض في قضايا شاسعة جدا، وقد تكون هذه الجملة ليست من الجمل الأهم في معرض حديثه، لكنّها بالنسبة لي هي في غاية الأهمية لأنّها تجيب على تساؤلات عديدة لديّ، ولدى غيري من معلمي اللغة العربية الذين عملوا في المدارس الثانوية، وفي معاهد إعداد المعلمين، وقد واجهْنا كلُّنا "معضلات" شرح وتوضيح بعض مسائل نحو اللغة العربية وصرفها، لأنّها أبعد ما تكون عن عالم هذا الجيل الذي ابتعد مساحات شاسعة عن عالم جيلنا نحن. فكيف له أن يدرك مناهج سيبويه (765-786) وابن مالك (1204-1274) وابن هشام الأنصاري (1309-1360)، وكتب النحو الكلاسيكية؟ عانيت بما فيه الكفاية، ويتابع غيري في هذه المعاناة على امتداد العالم العربي، والسبب هو تمسّكنا بالقديم "المقدس"، وهو ليس مقدسا. وسنظل ننتظر من يطيح بهذه المُسلّمات حتى نقرّب اللغة من إدراك أجيالنا القادمة.

يتحدث الباحثون والمنظرون عن دور فرديناند دي سوسير السويسري وما قدمه من أبحاث، في حين كان ابن جني (ت. 392هـ، 1002م) قد قدّم أبحاثه ودراساته قبل مئات السنين، وبالذات في تعريفه للغة تعريفا يشابه تعريف سوسير حين قال: "أما حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. هذا حدّها". (ابن جني، ص87) فإذا كان ابن جني وغيره قد حققوا ما حققوه، ولنا أن نفاخر بهم، فمن حقنا اليوم أن نتساءل ثم ماذا؟ ماذا بعد؟

إنّ ما يصدر من دراسات حول اللغة العربية هي في غالبيتها دراسات نابعة من مجهود يقوم به أفراد، لهؤلاء نحني رؤوسنا ولهم وحدهم نقدّم الشكر على ما قدموه من خدمات جُلّى للغتنا العربية الجميلة. ومن المؤلم أن تصطدم محاولات التجديد والتحديث بأولئك الأصوليين الذين يستميتون في "الدفاع عن شرف اللغة"، وهم في الحقيقة يعملون على تحنيطها وتجفيفها.

يشير الباحث عبد القادر الفاسي الفهري إلى أنّ اللسانيين العرب الذين حاولوا التجديد قد درسوا في الغرب، ولكن حتى هؤلاء اكتفوا بالاحتفاظ بما أتى به القدماء من معطيات، ولم يدرسوا النصوص الحديثة مثل الشعر والرواية، وبالتالي بقوا سجناء، برأيه، لمنهج القدماء، فلم يقترحوا تصوّرا بديلا للظاهرة اللغوية ولا نحوا بديلا لنسق قواعد القدماء. (الفهري، ص51-52) إنّنا نرى أنّ هناك عاملين بشريين رئيسيين وقفا في وجه تطور اللغة العربية، وما يزالان، حتى اليوم؛ جهل اللغة وعدم إدراك دورها في دفع عجلة التقدم، وتعنّت بعض أبنائها ووقوفهم سدا منيعا في وجه حركات التحديث.

كي تسير اللغة العربية إلى الأمام علينا أن نقرأ ما قاله فرديناند دي سوسير واضع حجر أساس علم اللغة الحديث، إذ يرى "أنّ اللسان ينطوي دائما على وجود نظام ثابت، كما ينطوي على عملية التطوّر، فهو في كل لحظة نظام قائم بذاته، ونتاج للزمن الماضي". (دي سوسير، ص27) اعتمادا على هذه المقولة الهامة هناك ما هو ثابت، وهناك ما هو متحرك، وعليه يمكننا العمل على تطوير اللغة العربية دون المسّ بأصولها الثابتة. فللبيت أعمدة وأسس تجعله راسخا وثابتا، لكنّنا قادرون على تغيير شكل البيت الداخلي وتغيير لون الحيطان وتقسيم البيت داخليا، وإدخال تعديلات تجعله أجمل وأكثر ملاءمة للعصر الحديث، دون زعزعة أعمدته الراسخة.

خلاصة

إنّ الدعوة إلى تحديث اللغة وتقريبها من مدارك النشء الجديد هي مطلب الساعة دون تأجيل، فالتأصيل والتحديث يكمل أحدهما الآخر؛ نحفظ الماضي ونحافظ عليه، ونستفيد من منجزات الحاضر، ولن يتحقق ذلك إلا إذا فتحنا أبواب المثاقفة، كما فعل العرب في القرون الوسطى.

لسنا هنا بصدد تكرار ما قلناه سابقا وما قاله المنظرون والدارسون، يتوجب علينا أن نعي أهمية اللغة؛ جمالياتها ومركباتها. وأن ندرك أنّها غير مسيّجة بحدود تضعها المعاجم، وتحفظها كتب النحو والصرف، فقد أثبتت اللغات كلّها أنها أداة طيّعة لمن يتقنها لا لمن يجهل أصولها.

سعت الأمم، وما زالت تسعى، في طريق تطوير كل العلوم والآداب والفنون، على اختلافها. وقد أدركت الشعوب الحية أنّ حاجتها إلى اللغة ليست أقل أهمية من حاجتها إلى الفيزياء والكيمياء. بل إنها تجنّد كل ما استفادت منه في مجال العلوم الاجتماعية والنفسية والفيزيائية والكيميائية في خدمة اللغة. فهي، فوق هذا وذاك، هويّة فكرية ومرآة حية وصادقة تعكس عمق التفكير أو ضحالته.

لقد تمادى بعضهم في اتهامهم اللغةَ العربية بالقصور، وعدم مواكبة العصر، ولا نقول ذلك من باب التفاخر، بل إننا نسعى، كما سعى غيرنا إلى تكرار قول الحقيقة، فقد صدق من قال إنّ اللغة هي الإنسان، إنّ هذه المقولة لهي من أعمق ما قيل وما سوف يقال عن اللغة، فهي حاملة لفكر الناطقين بها، تعكس آراءهم وثقافاتهم ورؤاهم وهمومهم وأفراحهم، ومن خلالها يمكن دراسة ميزات شعب معين في فترة معينة، ومن خلالها يمكن للباحثين أن يدرسوا تاريخهم الفكري والثقافي. وهي دلالة من دلالات نضجه ومن دلالات ضياعه وخموله وتخلُّفه. وما لم تقم مؤسساتٌ ترعاها دولٌ تُخصّص لهذه المؤسسات ميزانيات ملائمة لإجراء هذه الأبحاث فإن الحديث عن الأزمة سوف يظل يتكرّر، وبالتالي سيكون من السهل الحديث عن الأزمة، دون الإشارة إلى مسبباتها.

إن الأبحاث الهامّة التي يقوم بها البعض عبر دراساتهم رواية هنا وأخرى هناك، أو دراسة ديوان شعر هنا وآخر هناك، ومعالجة لغته ومستويات هذه اللغة لن يكون الحل. يكمن الحل في يد مؤسّسات الدولة. يقال إنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، هو الذي دفع أبا الأسود الدؤلي إلى دراسة اللغة، ووضع علم النحو خوفا من إصابة أصولها وقواعدها بخلل ما، وقرأنا في كتب الأدب وفي كتب تاريخ العرب أنّ الخلفاء والأمراء كانوا يرعون الأدب ويرعون الأدباء، يقيمون المجالس، يستمعون إلى الأشعار، يتناقشون ويتحاورون في أصول اللغة، مما جعلها تستجيب لجميع العلوم، وبالتالي تحوّلت إلى وعاء يتّسع لترجمة مؤلفات الشرق والغرب عن اللغة اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية والسريانية ونقلها إلى اللغة العربية. اللغة هوية، وما لم نصنها تعرضت لعطب قد يصيب مستقبل عالم عربي بأكمله. وما بقاء هذه اللغة إلا شاهد على غناها وسعتها وقوتها.

المراجع

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. ج.1. تحقيق عبد الحميد الهنداوي. القاهرة: دار الكتب العلمية، 2001.

باختين، ميخائيل. **الخطاب الروائي**. ترجمة محمد برادة. القاهرة: دار الفكر للدراسات، 1987.

بنكراد، سعيد. **سيميائيات النص**-مراتب المعنى. الرباط: دار الأمان، الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: منشورات ضفاف، 2018.

تشتشرين، أ، ف. **الأفكاروالأسلوب**- دراسة في الفن الروائي ولغته. ترجمة حياة شرارة. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1964.

تودوروف، تزفتان. "اللغة والأدب"، من كتاب **اللغة والخطاب الأدبي**. ترجمة سعيد الغانمي. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1993.

جغبوب، صورية. **قضايا اللسانيات العربية الحديثة بين الأصالة والمعاصرة**. (أطروحة دكتوراه، جامعة فرحات عباس- الجزائر، 2014)

دي سوسير، فرديناند. **علم اللغة العام**. ترجمة يوئيل يوسف عزيز. بغداد: دار آفاق عربية، 1985.

زاروبي، سليم. **في البدء- فيزياء، فلسفة وتاريخ علم الكون**. بيروت: دار الفارابي، 2020.

سابير، إدوارد. "مدخل للتعريف باللغة". من كتاب **اللغة والخطاب الأدبي**. ترجمة سعيد الغانمي. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1993.

ستروس، كلود ليفي. **الانتروبولوجيا البنيوية**. ترجمة مصطفى صالح. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977.

الفاسي الفهري، عبد القادر. **اللسانيات واللغة العربية- نماذج تركيبية ودلالية**. ج.1. ط.3. الدار البيضاء: دار توبقال، 1993.

فوكو، ميشيل. "ما معنى مؤلف". من كتاب **القصة، الرواية المؤلف- دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة**. ترجمة خيري دومة. القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، 1997.

كامل، رياض. **دراسات في الأدب الفلسطيني**. حيفا: مطبعة كل شيء، 2017.

المسدي، عبد السلام. **الهوية العربية والأمن اللغوي – دراسة وتوثيق**. بيروت: المركز العربي ودراسة السياسات، 2014.

هيلمسلاف، لويس. **حول مبادئ نظرية اللغة**. ترجمة جمال بلعربي. الرباط: دار الأمان، الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: منشورات ضفاف، 2018.

ياكوبسون، رومان. **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**. ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2002.

ياكوبسون، رومان، وهاله، موريس. **أساسيات اللغة**. ترجمة سعيد الغانمي. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008.